بيني وبين محمد شفيق البيطار

د. عبد النبي اصطيف

العلاقة بين الأستاذ والتلميذ في التقاليد الجامعية العربية، وبخاصة في مرحلة الدراسات العليا، علاقة تُداخلها العديد من الأعراض والتأثيرات الجانبية التي تُفسدها، وتحول بين طرفيها وبين التواصل الإيجابيّ الذي يغني العلم والمعرفة عامة، ويطوِّرهما، ويدفع بهما قدُمًا إلى آفاق جديدة.

وكما بتنا نلاحظ مؤخرًا، في جلسات الحكم على الرسائل الجامعيّة، أنّ الطّالب في كثيرٍ من الأحيان يُضمر في نفسه، بعد سماع حكم اللّجنة على الرّسالة، بأنّ هذا اللّقاء بأستاذه سيكون اللّقاء الأخير، ولن يكون ثمّة من لقاء بعده، إذ يرى في أستاذه عقبة في طريق ارتقائه الوظيفيّ، لأنّ عليه أن يتجاوزه معرفيًّا، وذلك أمر بحاجة إلى جدٍّ وعمل كبيرين لا يطيقهما، وربما لا يرغب فيهما، خاصّة وأنه قد نال، فيما يبدو له، الدرجة العليا في نظره، وختم العلم. بل ربما تُغريه النفس في الرّدّ على بعض وجوه النّقد التي لاحظها أعضاء اللّجنة في الرّسالة، وأعلنوها في جلسة الحكم، وبدت له تشهيرًا به، وربما بأستاذه. ولربما يزعم لنفسه وللآخرين أيضًا أن الرسالة كانت حصيلة جهده الخالص، وأنه لم يُفد من أستاذه البتّة، لأنّه أغزر علمًا، وأوسع معرفة منه. ولذلك فإنّه لا يشكر أستاذه في مقدّمة رسالته، إذا ما نشرها في كتاب، بل لا يذكر أن كتابه إنّما كان في الأصل رسالة جامعيّة أُعِدت بإشراف فلان من أساتذته.

وحسب المرء أن يقارن بين مقدمات الكتب العربية التي تكاد تخلو تمامًا من كلمة شكر أو تقدير لأستاذ، أو صديق، أو قارئ، وبين مقدّمات الكتب الأجنبيّة التي تسرف أحيانًا في شكر كلّ من أسهم على نحو أو آخر في إخراج هذا العمل وطباعته ونشره.

والواقع أنّه كان لا بدّ من الحديث عن هذه العلاقة السّائدة في تقاليدنا الجامعيّة لنتبين تميّز، بل فرادة، موقع فقيدنا العالم الجليل محمد شفيق البيطار (١٩٦٥-٢٠٢٤) في هذه العلاقة، من خلال إشارة مقتضبة إلى العلاقة التي جمعت بيني وبينه: أستاذًا وتلميذًا، وكانت علاقة إيجابيّة ومنتِجة ومفيدة لكلينا، على الرّغم من اختلاف اهتماماتنا، وتنوّع مشاريعنا البحثيّة، وأقلّها اختصاص كلّ منّا الذي كان سيبعده عن الآخر، بسبب البون الكبير القائم بين الاختصاصين.

وربما كان من المفيد بداية التذكير بما كانت تنطوي علاقتي بشفيق البيطار من مفارقات، أولها اتجاه الاعتزاز والفخر؛ ذلك أنّ الغالب أن يعتزّ المتأخِّر بالمتقدِّم، وعندما يأتي الأمر إلى علاقتنا أرى نفسي، أنا المتقدّم، تعتز بالمتأخِّر، مُنكِرة ما شاع من قول "**كم ترك الأول للآخر**"، ومؤكّدة أنّه قد ترك الكثير مما يمكن إنجازه.

وثانيهما اتجاه الاعتزاز والفخر الذي يمضي عادة من التلميذ باتجاه الأستاذ، وأجدني، أنا الأستاذ، أعتز بتلمذة شفيق عليّ، ربما أكثر مما يعتزّ به شفيق من تلمذته عليّ.

وثالثها أنّ المألوف هو أن يلجأ التّلميذ إلى أستاذه يستعين بخبرته وأبوّته على ما يُواجه من صعوبات في عمله العلميّ، وثانية، أجدني، وأنا الأستاذ، أطلب من تلميذي العون في صقل عملي العلميّ في التّرجمة من جانب، وفي التّوثيق من جانب آخر، وفي الاطمئنان إلى صواب اجتهادي في بعض أبحاثي في الشّعر الجاهليّ.

والحقيقة أنّه فضلًا على تعاوننا المثمر في أكثر من مجال (تنظيم المؤتمرات العلميّة عندما كان الفقيد أمينًا **للمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية**؛ وتحرير **مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية** عندما كان رئيس تحريرها، وكنت أنا نائبه، مع أنّه سبق لي

رئاسة تحريرها لفترة قصيرة قبل إيفادي إلى **مدرسة المترجمين الدوليين** في **جامعة مونص** في بلجيكا؛ ومشاركته القيّمة في الكتابة بفصل موسع في كتاب **الأدب في بلاد الشام**، الذي قمت، وثلة من أعلام الدرس الأدبي في سورية، بالتخطيط له وتحريره ونشره، عندما كنت مديرًا عامًا **للهيئة العامة السورية للكتاب** بوصف الكتاب، ذي المجلدين (اللذين تجاوزت صفحاتهما ألفي صفحة، خصص الأول منهما لتاريخ في هذا الأدب منذ اختراع الكتابة وحتى نهاية القرن العشرين، في حين خصص الثاني منهما لنصوصه الممتدة ما يقرب من خمسة آلاف سنة) إسهامَ الهيئة في **احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية** (عام٢٠٠٧)؛ وعملنا معًا رئيس قسم وزميل عندما كنت رئيس **قسم اللغة العربية وآدابها** (ثم عملنا معًا رئيس قسم وزميل عندما تبادلنا الأدوار في تاريخ لاحق)، فقد لجأت إليه في مراجعة ما ترجمته من قصائد الشّعر الأمريكيّ العربيّ التي بلغت المئة قصيدة، مستندًا في ذلك إلى نَفَسه الشعريّ من جانب وحسّه اللغويّ من جانب آخر، لأنّي كنت حريصًا على الاطمئنان إلى انسراب الرّوح العربيّة في نسيج القصائد المترجمة، وكم كانت فرحتي عظيمة عندما وجدته يشاركني هذه الرّوح، ويطري ترجمتي وقربها من الحساسية العربيّة الفنيّة والنفسيّة. كما لجأت إليه عندما أعددت بحثًا مطوَّلًا عن قصيدة المثقّب العبديّ التي مطلعها:

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سألت كأن تبيني

وناقشت فيه طبيعة علاقته بناقته التي أسرف وأجاد في وصفها خِلقة وخُلقًا، وخصها في قصيدته بأبيات رائعة تجاوز عددها عدد الأبيات التي انصرف فيها إلى الحديث عن فاطم وموكب ظعنها. وعلى الرغم من أنّه لم يتفق مع ما ذهبت إليه من إشارة إلى علاقة قد تبدو للبعض مريبة بينه وبين الناقة، فقد فوجئت بعض المفاجأة بتدقيقه لكل حرفٍ من الدّراسة، حتى إنّه أضاف الشّكل لبعض كلماتي حرصًا منه على ضرورة صحّة قراءتها.

وأخيرًا فإنّني أحسّ الآن بفقدٍ كبيرٍ لمصدرٍ حيّ من مصادر الشّعر العربيّ القديم كنت أنهل منه وأعلّ كلّما أردت توثيقًا لبيت أو لقطعة من هذا الشعر، فقد كنت أتواصل معه أطراف النهار، وآناء الليل، لأسأله عما كان يشاغلني من شكوك في رواية بعض نصوص الشعر العربيّ كان يبدّدها بالقول الفصل مستعينًا على ذلك بحافظة نادرة، وحسّ نقديّ كم بتنا نفتقده في باحثي هذه الأيام.

وعلى الرغم من إيجابيّة تواصلنا شبه اليوميّ في مسائل تتّصل بالأدب العربيّ قديمه وحديثه، تدريسًا وبحثًا، وباللغة العربيّة انشغالًا حميميًّا من خلال عمله في **مجمع اللّغة العربية بدمشق** عضوًا عاملًا، ومن خلال عملي البحثيّ في التّرجمة والعلاقات الثقافيّة والفكريّة والأدبيّة والنقديّة بين العرب والغرب، فإنّي أرى أن علاقتنا العلميّة هذه **قد تجاوزت العلاقة بين التّلميذ والأستاذ**، لتغدو **شراكة في إنتاج المعرفة المتّصلة بأدبنا ولغتنا وثقافتنا عامة**، أساسها حب العلم الذي فُطِرنا عليه وأودعه الله في قلبينا، والثقة المتبادلة بصدق مسعانا معًا في طلبه وتنميته ومحاولة الإضافة إلى ما قدمه آباؤنا وأجدادنا من معرفة، بوصف هذا المسعى عروجًا نحو خالقنا العالِم العليم، وهو الذي أكرم طلاب العلم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عندما أكد أنّ "**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله طريقه إلى الجنة**".

وهكذا ينبغي أن تكون عليه العلاقة العلميّة بين الأجيال المتعاقبة والأستاذ والتلميذ أيضًا، وكلاهما طالب علم، علاقة شراكة معرفيّة. صحيحٌ أنّ المتقدِّم قد يمتلك الحكمة والخبرة والمران المكتسب بطول الممارسة، ولكنّ المتأخّر يمتلك الاجتهاد وحب المغامرة وارتياد الآفاق الجديدة.